أثر المقدّمة في مؤلفات القرن التّاسع الهجري (من خلال مقارنة بين مقدمة ابن خلدون ومقدّمتي ابن الأزرق)[1]*

بقلم : خالد ميلاد

يكاد مؤرخو الفكر الانساني يُجمعون على أن المقدّمة وما احتوت عليه من علم جديد لم تكشف قيمتها ولم تجن ثمارها إلا خلال القرن التاسع عشر الميلادي عن طريق الغرب ومفكّريه .

وإنّ ما تركه لنا معاصرو ابن خلدون من مصنّفات تعرّضت بالذكر لكتاب « العبر » ولصاحبه ، لا يبينّ لنا مدى إدراك هؤلاء لقيمة المقدّمة . ذلك أن تلك المصنّفات لا تعدو أن تكون نصوصا تعلقت بابن خلدون بصفته قاضيا أو رجلا شارك في بعض الأحداث السّياسية . أمّا ما جاء من آراء حول العبر فهو مجمل على عادة أهل العصر سواء أكان مدحا أم تهجّما (2) .

---

(1) هو قاضي الجماعة أبو عبد الله محمّد بن عليّ بن الأزرق الأصبحي الاندلسي المتوفّى سنة 896 هـ بالقدس .

(*) أشرف على منطلقات هذا البحث مشكورا الأستاذ أحمد عبد السلام .

(2) انظر آراء لسان الدّين بن الخطيب وابن حجر العسقلاني والبشبيشي والمقريزي وابن عرفة والسّخاوي في الضّوء اللامع لأهل القرن التاسع ـ مكتبة القدسي القاهرة 1354 هـ ـ الجزء الرابع ص ص 145 ـ 149 ـ وراجع بعض ذلك في :
مؤلفات ابن خلدون لعبد الرحمان بدوي ص ص 301 ـ 354 الدار العربيّة للكتاب 1979 .

وقد نشر في الأعوام الأخيرة مؤلّف من القرن التاسع الهجري (3) يكشف لنا من خلال عنوانه ومحتوياته عن تأثّر كبير بالمقدّمة وما اشتملت عليه من معان .

ولئن جعل ابن خلدون المقدّمة مدخلا لكتابه العبر ، فقد اتّخذ ابن الأزرق « لبدائعه » مقدّمتين ، سنقتصر عليهما في مقارنتنا بين ابن خلدون وابن الأزرق عسانا نقف على مدى تقبّل جيل القرن التّاسع الهجري للفكر الخلدوني ومدى فهمهم للمقدّمة وما تضمّنته من منهجيّة تاريخيّة توصّل بها صاحبها الى وضع علم جديد سمّاه « علم العمران » وذهب إلى أنّه علم مستقلّ بنفسه ويختلف عن علم الخطابة وعلم السّياسة المدنيّة (4) .

وقد يحسن بنا أن نشير في بداية هذه المقارنة (بين مقدّمتي ابن الأزرق ومقدّمة ابن خلدون) إشارات خاطفة إلى خلاصة ثقافة الرجلين ، هذه الثقافة المتّصلة بالحياة الفكرية والحياة السّياسية في عصريهما المتقاربين (1) . فكلاهما عاش في بيئة ثقافية متشابهة إن لم تكن واحدة ، فقد ولدا في بيئتي علم ودين وتلقّيا تعليما دينيّا من حفظ للقرآن ودراسة للحديث والفقه والقراءات .

على أنّ ابن خلدون قد يكون تميّز عن ابن الأزرق بنظره في مؤلفات أرسطو وأفلاطون وذلك أثناء تلخيصه للكثير من كتب ابن رشد (2) وقد ذكر لنا لسان الدّين بن الخطيب في كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة أن ابن رشد « قد لخّص كتاب الجمهورية لأفلاطون وفسّر كتاب السّياسة لأرسطو بكل مقالاته الثماني (3) . ويبدو أنّ ابن خلدون قد استفاد من هذه الكتب . كما

(3) بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق الأندلسي دراسة وتحقيق د. محمد عبد الكريم ، الدار العربية للكتاب 1977 .
(4) المقدمة ص 38 ، ط ، دار الفكر .
(1) ابن خلدون (ت 808 هـ) وابن الازرق (ت 896 هـ) .
(2) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، آنظر مؤلفات ابن خلدون ص 306 .
(3) نفس المرجع .

ذكر ابن الخطيب أنّ ابن خلدون « علق للسطان أيّام نظره في العقليّات تقييدا مفيدا في المنطق » (4) .

ولعل هذا يكون من الأسباب التي جعلت الأستاذ محمد الطالبي يذهب إلى أنّ تكوين ابن خلدون لم يكن تكوين مؤرخ « كان اتجاهه أوّلا نحو الفلسفة بإشراف أستاذه الآبلي » ، ويذكر أنه لخّص مؤلف الرّازي « كتاب محصّل أفكار المتقدّمين والمتأخّرين من العلماء والحكماء والمتكلمين » (5) .

على أنه يبدو ـ من خلال الأخبار ومن خلال ما ذكره ابن الأزرق نفسه ـ أنه يمكن أن يكون قد اطلع على مثل هذه المؤلفات التي اطلع عليها ابن خلدون . فقد ذُكِر أنّ ابن الأزرق لازم ابراهيم بن أحمد بن فتوح مفتي غرناطة وأخذ عنه النّحو والفقه والأصلين والمنطق ، كما يشير في كتابه بدائع السلك في طبائع الملك إلى كتاب العهود اليونانية (6) وكتاب الافلاطونيات .

إلا أننا نذهب إلى أنّ انتفاع ابن خلدون بالمنطق اليوناني كان أعمق ، بالرّغم من أنه عقد فصلا في المقدّمة في إبطال الفلسفة وفساد منتحليها (7) (ومن المرجّح أن يكون قد أضاف هذا الفصل في أواخر حياته) ـ ذلك أنّ ابن خلدون كان اتجاهه نحو الفلسفة بحكم تأثّره بأستاذه الآبلي كما ذكرنا وكذلك فإنّ حياته لم يكن للفقه فيها حظ كبير رغم ما يذكر من تنافس بينه وبين ابن عرفه بلغ درجة العداء الذي لا نرى له من سبب سوى تسابق الرجلين الى كسب مكانة سياسيّة (1) ، ورغم أنّه قضى نحو أربعة وعشرين عاما من سني نضجه الكامل يتردّد بين تدريس الفقه وتولي القضاء . فابن خلدون في الحقيقة

(4) نفس المرجع ص 306 .

(5) منهجيّة ابن خلدون التّاريخية وأثرها في ديوان العبر ، محمد الطالبي ، الحياة الثقافية 1980 السنة الخامسة عدد خاص بابن خلدون .

(6) وقد ذكر عبد الرحمان بدوي أن هذا الكتاب هو من وضع أحمد بن يوسف (ق 3 هـ بمصر) راجع الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الاسلام ـ القاهرة 1954 .

(7) المقدمة ص 514 .

(1) راجع فصل : نحن وابن خلدون ، محمد أركون ، أعمال ندوة ابن خلدون الرّباط ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرّباط بمناسبة مرور ستّة قرون على تأليف المقدمة 1979 .

قد اتصل بالأمراء واتجه إلى إعانتهم في السياسة وشؤون الملك وعاش في جوّ مضطرب رضع فيه الفتن وأرضعها ولم يفكّر في الرجوع إلى الفقه إلّا عندما جاء مصر سنة 784 هـ لِمَا كان للفقهاء من علوّ المَقام .

أما ابن الأزرق فقد كان من رجالات الفقه والعقائد والأدب والتاريخ وقد تولّى القضاء والسّفارة والتّدريس والإفتاء واعتنى على الأخصّ بالأخلاق والسّلوك .

ومهما يكن فإنّ الاختلاف الجوهريّ بين الرّجلين لا يرجع إلى ثقافتهما بقدر ما يرجع إلى مدى الانتفاع بهذه الثقافة ، فابن خلدون اعترف له ابن الخطيب بقدرته على استنباط المعاني وإذا ما أضفنا إلى ذلك سعة معرفته وكثرة تجاربه ومعاناته للأحداث السّياسية الكبرى في عصره تبيّن لنا تميّز ابن خلدون بسبك تلك المعارف والانتباه إلى الكليات بتجاوز الجزئيات وهو ما عبّر عنه الكثير من الباحثين بلفظة عبقريّة ابن خلدون .

ولعل الإشارة إلى هذه الناحية قد تنير لنا منهج الرّجلين في البحث ، في المدوّنتين اللّتين سنسعى إلى المقارنة بينهما .

بقي أن نلاحظ أيضا أنهما شاهدا فترات تاريخية تميّزت بتحوّل خطير في التاريخ الإسلامي سواء كان ذلك في الاندلس حيث تقلصت دولة المسلمين وانحسرت في غرناطة والمريّة وجبل الفتح أو في المغرب وقد هزّته الاضطرابات ورحته الفتن (2) أو في المشرق حيث بقيت آثار الزحف المغولي الذي خلف حكم المماليك (3) .

هذه الأوضاع السياسية العامة عاشها الرّجلان وشاركا بطريقة أو بأخرى في إصلاحها ، فقد اهتم كلاهما بالسّياسة والملك ، وبذلك تكون الخلفيّة

(2) وقد عبّر ابن خلدون عن ذلك بقوله : « وأمّا لهذا العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدّلت بالجملة . . . » المقدّمة ص 38 .

(3) وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب . . . المقدمة ص 33 .
ونلاحظ أن لشعور ابن خلدون بهذا التبديل أثرا عميقا في تحديد نظرته للتاريخ والعمران البشري .

السياسية للرجلين متشابهة تشابه الخلفية الثقافية مع اعتبار البعد الزمني الذي لا يكاد يتجاوز القرن ولا يمثل إلاّ امتدادا للانحسار الفكري والانحطاط والتراجع .

فما هي أوجه التشابه والاختلاف بين المقدمة ومقدمتي بدائع السلك في طبائع الملك ؟ وبالتالي كيف وقع تأثير ابن خلدون في ابن الازرق وفي جيل القرن التاسع الهجري .

إن الاستقراء المقارن للمدوّنتين يمدّنا بالتوزيع التالي للمادة الموجودة في مقدمة ابن الأرزق الأولى « في تقرير ما يوطّىء للنظر في الملك عقلا » (1) مع مقابلة تلك المادة بما يوجد في مقدمة ابن خلدون من فصول .

مقدمة ابن الازرق الأولى : في تقرير ما يوطّيء للنّظر في الملك عقلا

س (1)السابقة الأولى : أنّ الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم ضروري (1) .

س (2) : أنّ من العوارض الطبيعية لهذا الاجتماع أمور خمسة . . . (2) .

س (3) : الموجب لانقسام العمران إلى بدوي وحضري (3) .

س (4) : أنّ تقدّم البدوي على الحضري (4) .

س (5) : أنّ أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر (5) .

س (6) : أنّ أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر (6) .

---

(1) بدائع السّلك في طبائع الملك : ص ص 71 ـ 90 .

(1) بدائع السّلك ص 71 .

(2) نفس المرجع ص 71 . 72 .

(3) نفس المرجع ص 72 .

(4) نفس المرجع ص 72 . 73 .

(5) نفس المرجع ص 73 .

(6) نفس المرجع ص 73 . 74 .

س (7) : أنّ معاناة أهل الحضر للاحكام مفسد للبأس وذاهب بالمنعة (7) .
س (8) : أنّ سكنى البدو لا يتمّ إلا للقبائل ذوي العصبيّة (8) .
س (9) : أنّ العصبيّة لا تحصل إلا بالتحام نسب أو ما في معناه (9) .
س (10) : أنّ الرئاسة على أهل العصبيّة لا تكون في غير نسبهم (10) .
س (11) : أنّ شرف البيت بالأصالة والحقيقة إنّما هو لأهل العصبيّة وأما لغيرهم فبالمجاز (11) .
(12) : أنّ البيت والشّرف للموالي والمصطنعين إنّما هو بمواليهم لا بأنسابهم (12) .
س (13) : أنّ نهاية الحسب في العقد الواحد أربعة آباء (13) .
س (14) : أنّ الامم الوحشية أقدر على التّغلب (14) .
س (15) : أنّ العرب لا يتغلبون إلاّ على البسائط (15) .
س (16) : أنّهم اذا تغلبوا على الأطان أسرع إليها الخراب (16) .
س (17) : أنّ البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار (17) .
س (18) : الصريح من النّسب إنّما يوجد للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم (18) .

(7) نفس المرجع ص 74 . 75 .
(8) نفس المرجع ص 75 . 76 .
(9) نفس المرجع ص 76 . 77 .
(10) نفس المرجع ص 77 . 78 .
(11) نفس المرجع ص 78 . 79 .
(12) نفس المرجع ص 80 .
(13) نفس المرجع ص 80 . 81 . 82
(14) نفس المرجع ص 82 . 83 .
(15) نفس المرجع ص 83 .
(16) نفس المرجع ص 84 . 85 .
(17) نفس المرجع ص 86 .
(18) نفس المرجع ص 87 . 88 .

س (19) : أنّ اختلاف الانساب يقع بسقوط بعض من أهلها إلى نسب آخر (19) .

س (20) : أنّ جيل العرب في الخليقة طبيعيّ (20) .

مقدمة ابن خلدون

الباب الأول من الكتاب الأول : في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات : المقدمة الأولى في أن الاجتماع الانساني ضروري (1) .

آخر التمهيد الذي مهّد به ابن خلدون للكتاب الأول : في طبيعة العمران في الخليقة (2) .

الباب الثاني من الكتاب الأول : في العمران البدوي : الفصل الأول في أن أجيال البدو والحضر طبيعيّة (3) .

الفصل الثاني من نفس الباب السابق : في أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها (4) .

ف (4) : في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر (5) .

ف (5) : في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر (6) .

ف (6) : في أنّ معاناة أهل الحضر للاحكام مفسدة للبأس ذاهبة بالمنعة منهم (7) .

(19) نفس المرجع ص 88 . 89 .
(20) نفس المرجع ص 89 . 90 .
(1) المقدمة ص 41 .
(2) نفس المرجع .
(3) المقدمة ض 120 .
(4) المقدمة ص 122 .
(5) المقدمة ص 123 .
(6) المقدمة ص 125 .
(7) المقدمة ص 125 .

ف (7) : في أن سكنى البدو لا يكون الاّ للقبائل أهل العصبيّة (8) .

ف (8) : في أنّ العصبيّة إنّما تكون من الالتحام بالنّسب أو ما في معناه (9) .

ف (12) : في أنّ الرئاسة على أهل العصبيّة لا تكون في غير نسبهم (10) .

ف (13) : في أن البيت والشرف بالأصالة والحقيقة لأهل العصبيّة ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه (11) .

ف (14) : في أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع انّما هو بمواليهم لا بأنسابهم (12) .

(15) : في أنّ نهاية الحسب في العقد الواحد أربعة آباء (13) .

ف (16) : في أنّ الأمم الوحشيّة أقدر على التغلب ممن سواها (14) .

ف (25) : في أنّ العرب لا يتغلبون الاّ على البسائط (15) .

ف (26) : في أنّ العرب إذا تغلبوا على الأوطان أسرع اليها الخراب (16) .

ف 29) : في أنّ البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار (17) .

ف (9) : في أنّ الصريح من النّسب إنّما يوجد للمتوحّشين في القفر من العرب ومن في معناهم (18) .

ف (10) : في اختلاط الانساب كيف يقع (19) .

ف (2) : في أن جيل العرب في الخلقة طبيعيّ (20) .

---

(8) المقدمة ص 127 .

(9) المقدمة ص 128 .

(10) المقدمة ص 132 .

(11) المقدمة ص 134 .

(12) المقدمة ص 135 .

(13) المقدمة ص 136 .

(14) المقدمة ص 138 .

(15) المقدمة ص 149 .

(16) المقدمة ص 149 .

(17) المقدمة ص 153 .

(18) المقدمة ص 129 .

(19) المقدمة ص 130 .

(20) المقدمة ص 121 .

ويمكن أن نلاحظ من خلال هذا التوزيع المقارن ما يلي :

(1) نقل ابن الازرق أو تلخيصه في مقدمته الأولى لما جاء من فصول في الباب الثاني من مقدمة ابن خلدون بوجه خاص .

(2) لا أثر لمقدمة المقدّمة في مقدّمتي ابن الازرق ، وهو تمهيد عقده ابن خلدون في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع بما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها (1) .

ولعل هذا التمهيد يكشف في الحقيقة عن السرّ الذي توصّل به ابن خلدون إلى اكتشاف العلم الجديد المستقلّ بنفسه وهو علم العمران ، فقد عرّف صاحب المقدّمة في تمهيده هذا علم التاريخ تعريفا جديدا عندما ذكر أنه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم . وبيّن ما يحتاج إليه المؤرخ « من معارف وحسن نظر وتثبّت » (2) ثمّ أبرز مغالط المؤرخين وأسبابها ووضّح ما ينبغي أن يعتمد عليه الإخبار من قانون لتمييز الحق من الباطل بوجه برهاني لا مدخل للشكّ فيه ، وهذا القانون إنّما هو الأحوال الواقعة في العمران ، وهي عند ابن خلدون « معيار صحيح يتحرّى به المؤرخون طريق الصّدق والصّواب فيما ينقلونه » (3) وهو يعتبر أنّ هذا هو غرض المقدّمة .

إنّ لهذه المقدّمة التمهيدية قيمة كبيرة في نظرنا غير أنّ ابن الازرق لم يشر إليها في مقدمته حتّى نعرف مدى فهمه لمقدمة ابن خلدون التي تكشف عن علم ونوع من الكتابة يختلف عما كان معروفا في كتب المواعظ والسياسة المدنية والخطابة والحكمة .

ولعل إهمال ابن الازرق لهذه التمهيدات الخطيرة يرجع إلى كثرة الاختصار الذي عمد إليه . وقد يكون الأمر راجعا إلى أن ابن الأزرق ارتأى غرضا آخر من مؤلفه مخالفا لغرض ابن خلدون واهتماماته ، ذلك أن ابن

---

(1) المقدمة ص ص 9 . 35 .
(2) نفس المرجع ص ص 9 .
(3) نفس المرجع ص 37 . 38 .

الأزرق أشار في توطئة كتابه إلى أن غرضه إنّما هو « تلخيص ما كتب الناس في الملك والإمارة والسّياسة التي رعيها على الإسعاد بصالح المعاش والمعاد أصدق أمارة ، على نهج يكشف عن محيا الحكمة قناع الاحتجاب » (4) .

فعمل ابن الازرق إذن هو نقل وتلخيص (1) لما يفيد البشر في دنياهم وآخرتهم . وما اعتناؤه بالملك إلا لأنه صورة للاجتماع البشري به تصلح الدنيا والآخرة أو تفسدان .

(3) إِعتماد ابن الأزرق في مقدّمته الأولى أساسا على الباب الثاني من مقدمة ابن خلدون ، وهو الباب المتعلق بالعمران البدوي . ولم تخرج عن هذا الباب إلّا السابقة الاولى والثانية اللتان يمكن اعتبارهما منطلقا وتمهيدا لكامل مقدمته الأولى ، إذ أنّ السابقة الاولى تقرّر ضرورة الاجتماع الانساني وتشير الثانية إلى عوارض هذا الاجتماع البشري .

ومن هنا تظهر بعض السمات لمنهجية ابن الأزرق المتمثلة في الانطلاق من العام إلى الخاص فهو ينتقل من الاجتماع الانساني (2) إلى عوارضه (3) إلى انقسامه إلى بدويّ وحضريّ (4) وتختصّ بذلك بقيّة السّوابق بالعمران البدويّ .

ولكن فيم اعتماد ابن الأزرق على العمران البدوي أساسا لمقدمته الأولى ؟ قد نرجّح أن يكون ذلك لاعتباره أن العمران البدوي هو الأرضية التي تمهّد لنشأة الملك عن طريق العصبيّة ، وبما أن العمران البدوي يمهد لظهور الملك فإننا نرجّح أن يكون ابن الازرق قد اعتمد هذا الباب لكي يمهّد به لموضوعه الرئيسي في « كتاب بدائع السلك » وهو السلطان والملك .

(4) بدائع السلك في طبائع الملك ص 59 .

(1) يحسن أن نلاحظ أن مِثْل هذا النقل أو التلخيص لم يكن يعتبر نقصا في ذلك العصر بل كانوا يفتخرون أحيانا بذلك .

(2) السابقة الأولى

(3) السابقة الثانية .

(4) السابقة الثالثة .

(4) لم يعتمد ابن الازرق على جميع الفصول الواردة في الباب الثانيَ من مقدمة ابن خلدون والمتعلقة بالعمران البدوي . فماذا حذف ؟ وهل خالف ابن خلدون في ترتيب فصوله ؟

أ ـ اذا ما استقرينا جملة الفصول المحذوفة نجدها تتمثل في :

ـ ف 11 : في أنّ الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبيّة (5) .

ـ ف 17 : في أنّ الغاية الّتي تجري إليها العصبيّة هي الملك (6) .

ـ ف 18 : في أنّ من عوائق الملك حصول التّرف وانغماس القبيل في النّعيم (7) .

ـ ف 19 : في أنّ من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم (8) .

ـ ف 20 : في أنّ من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس (9) .

ـ 9 21 : في أنّه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع (10) .

ـ ف 22 : في أنّ الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمّة فلا بد من عوده إلى شعب آخر منها ما دامت لهم عصبيّة (1) .

ـ ف 23 : في أنّ المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيّه ونحلته وسائر أحواله وعوائده (2) .

(5) المقدمة ص 131 .
(6) المقدمة ص 139 .
(7) المقدمة ص 140 .
(8) المقدمة ص 141 .
(9) المقدمة ص 142 .
(10) المقدمة ص 145 .
(1) المقدمة ص 145 .
(2) المقدمة ص 147 .

ـ ف 24 : في أنّ الأمة إذا غلبت وصارت إلى ملك غيرها أسرع إليهما الفناء (3) .

ـ ف 27 : في أنّ العرب لا يحصل لهم الملك إلّا بصبغة دينيّة من نبوّة أو ولاية أو أثر عظيم من الدّين على الجملة (4) .

ـ ف 28 : في أنّ العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك (5) .

ولعله يمكننا تعليل حذف ابن الازرق للفصل الحادي عشر بمجرد الاختصار ، اذ أن الفصل شبيه جدّا بالفصل الثاني عشر الذي أورده في السّابقة العاشرة .

أما الفصلان السابع والعشرون والثامن والعشرون من مقدمة ابن خلدون فانهما يشتملان على أحكام من المرجّح أنّها لم تعجب ابن الازرق فحذفها بالرّغم من أنّه أورد ما يشبهها في السابقة السادسة عشرة .

ومن ناحية ثالثة يمكننا تعليل حذف الفصول من السّابع عشر إلى الرّابع والعشرين لسببين :

أوّلهما : تميّز هذه الفصول بإيراد عبارات من مثل : الرئاسة ـ الملك عوائق الملك ـ علامات الملك ـ الملك الأوسع ـ ذهاب الملك المغلوب ـ الأمة الغالبة الصائرة إلى ملك ـ . إنّ دلالة هذه العبارات في رأينا جعل ابن الازرق يفصل فصولها عن مقدّمته ، ذلك أنّه يمهّد للملك وهذه الفصول في نظره هي جوهر موضوعه في مؤلفه وسيعود إلى تناولها بالدّرس في جوهر كتابه .

وثانيهما : تميّز أغلب هذه الفصول بإشارات إلى حركية تتصل بالملك والغلب والسقوط . . . ويؤكد هذه الحركية بعض الأفعال من مثل « تجري » (العصبيّة) « ذهب » (الملك) « غلب » (الأمة) « أسرع » (الفناء) أو ما يعبّر عن أحداث من مصادر مثل « حصول » ـ « انغماس » ـ « انقياد » ـ « تنافس »

(3) المقدمة ص 148 .
(4) المقدمة ص 151 .
(5) المقدمة ص 151 .

ـ « عودة » ـ « اقتداء » . . . وهذه الحركية متصلةٌ بجوهر مباحث ابن الازرق في كتابه ، فلا مجال لإيرادها في المقدّمة .

ب ـ أما الاختلاف في ترتيب الفصول فنلاحظه في مناسبتين نردّهما إلى سبب منهجيّ واحد . فابن الازرق قد أخّر الفصلين التاسع والعاشر إلى السّابقتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة وقد أراد بذلك الرجوع إلى العموميات التي تمهّد بدورها لخاتمة أعمّ تتمثل في السّابقة العشرين الموافقة للفصل الثاني المتأخر بدوره عن سياقه في مقدمة ابن خلدون .

ومهما يكن فإنّ الأهمّ بالنسبة إلى ابن الازرق هو التمهيد للحديث عن الملك دون الخوض في خصوصياته وحركيته ، واقتضى منه ذلك منهجيّة معيّنة تمثلت كما بيّنا في حذف كل الفصول المتصلة بعلامات الملك وعوائقه . . . والاقتصار على بيان أحوال العمران البدوي عامّة .

على أن منهجية ابن خلدون تختلف عن منهجيّة ابن الأزرق وغرضه ، ذلك أن ابن خلدون يعتني بكل ما في العمران البدوي من خصائص وبكل ما يحدث فيه من حركيّة فكان تأكيدُه على العصبيّة التي تجري إلى الملك ووقوفه عند بعض ما قد يحول دونها لبلوغ الملك . فهو يعتبر أن الملك يولد في العمران البدوي ويرى أنّ قوّته أو ضعفه عند نشأته متأتيان من طبيعة الأمّة في العمران البدوي (مقدار توحّشها . . .) فالملك إذن يستمدّ جذوره من العمران البدوي الذي تكمن فيه كثير من العوامل المؤثرة في اتساع الملك أو فنائه .

ولعلّ هذه العلاقة بين العمران البدوي والملك هي حلقة التّحوّل الأولى الأساسية في سلسلة تفكير ابن خلدون ومنهجه وهو ما لم يبيّنه ابن الازرق إمّا لأنه ليس من أغراضه أو لأنّه لم ينتبه إليه .

بقي أن نشير إلى منهج ابن الازرق المتمثل في تبويب فصول ابن خلدون بعد تلخيصها ، فهو يعمد إلى الإكثار من التقسيمات والتفريعات بحسب الأسباب والعلل والأوْجُه دون أن يضيف شيئا في الحقيقة ، أما ما جاء تحت عناوينه من مثل : برهان وجود أو اعتذار (س 7) أو غفلة (س 10) أو فائدة

حكمة أو إنصاف (س 9) فهو لا يمثل اعتراضات أو أراء شخصية وانما هي لون من ألوان التفريع والتبويب وهي نزعة تعليمية مرتبطة بالعصر .

وقد يكون من آثار هذه النزعة عند ابن الازرق ما عَمَدَ اليه من تقسيم المقدمة في كتابه الى مقدمتين :

الأولـى : في تقرير ما يوطّيء للنظر في الملك عقلا (1) وقد مدتنا بجملة الملاحظات السابقة .

والثانيـة : في تمهيد أصول من الكلام في الملك شرعا (1) فما عسى أن يفيدنا به استقراؤنا المقارن بين هذه المقدمة الثانية ومقدمة العبر ؟ وقبل الشروع في المقارنة يحسن أن نشير إلى الاختلاف الجوهري بين هذه المقدمة وما تقوم عليه من « كلام شرعي » ، وبين المقدمة الأولى المعتمدة على « النظر العقلي » ، وهو أمر سيفضي بنا إلى البحث عن مصادر أخرى غير خلدونية اعتمدها ابن الازرق في مقدّمته الثانية (2) . وما من شك في أن ابن خلدون نفسه قد استقى منها الكثير من أفكاره .

(1) بدائع السلك ص ص 71 . 90 .

(1) ص ص 91 . 104 .

(2) نشير بذلك الى سراج الملوك للطرطوشي (520 هـ) وهو ما جعل مقارنتنا تتحوّل في الصفحات التالية الى مقارنة ثلاثية . وقد نستفيد من ذلك أن ابن خلدون لم يستنبط المعاني الواردة في مقدمته وإنّما أخذ الكثير منها عن سابقية ولعل مزيته تتمثل في تركيب تلك المعاني بطريقة تفسّر غالب الظواهر الاجتماعية . فابن خلدون لا يختلف عن سابقية في المادة وإنّما في التفسير والتعليل والانتباه الى الكلّيات بعد تجاوز الجزئيات .

المقدمة الثانية من بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق (1)	مقدّمة ابن خلدون (1)	سراج الملوك للطرطوشي (1)
الفاتحة الأولى : أنّ الضرورة في الاجتماع الطبيعي لنوع الانسان تدعو الى المعاملات التي تتولد عنها لوازم كالمنازعات ، لما في الطبيعة الحيوانية من الظّلم والعدوان ، وهي مؤذنة بانقطاع النّوع فيقتضي حفظ النوع الوازع وهو السلطان المانع .	**الفصل الأول من الكتاب الأوّل في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات :** ضرورة الاجتماع للنوع الانساني وضرورة الوازع الذي يدفع بعضهم ببعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظّلم .	**الباب الخامس : في فضل الولاة والقضاة اذا عدلوا : يقول** قال اللّه تعالى « ولولا دفع اللّه النّاس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » يعني أنّ اللّه تعالى أقام السلطان يدفع القوي عن الضعيف وينصف المظلوم من الظالم ولولا ذلك لأهلك القويّ الضّعيف وتواثب الخلق بعضهم على بعض فلا ينتظم لهم حال ولا يستقرّ لهم قرار فتفسد الارض ومن عليها .
الفاتحة الثانيـة : أنّ مصلحة نصب السلطان الوازع لا تعارضها المفاسد اللازمة عن قهره وغلبته .	**الفصل الثالث من الكتاب الأول فصل في انقلاب الخلافة الى الملك :** الملك لّما ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدّين ومراعاة المصالح وانّما ذمه لما فيه من التغلب بالباطل .	**الباب الثامن في منافع السّلطان ومضاره :** قال حكماء العرب والعجم : مثل مضار السّلطان في جنب منافعه مثل الغيث الذي هو سقيا الله تعالى وبركات السماء وحياة الارض ومن عليها وقد يتأذّى به المسافر ويتداعى له البنيان وتكون فيه الصواعق .

(1) نقتصر على الاشارة الى عناوين الفصول وبعض ما جاء فيها من جمل . . . ونعتقد ان عناوين الفصول تغني عن ايراد الصفحات نظرا لكثرة الطّبعات المتصلة بالمؤلفين الثاني والثالث .

المقدمة الثانية من بدائع السلك في طبائع الملك لابن الازرق (1).	مقدّمة ابنْ خلدون (1)	سراج الملوك للطرطوشي (1)
الفاتحة الثالثة : أن توهم الاستغناء عن السلطان باطل ـ في الدين ـ في الدّنيا	+ فصل العمران البشري على الجملة . . . ضرورة الوازع الذي يدفع بعضهم ببعض . + فصل في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب .	**الباب الثامن عشر : في منزلة السلطان من القرآن** : روي عن النبي ﷺ أنّه قال : انّ اللّه ليرعي بالسّلطان ما لا يرعى بالقرآن أي يدفع .
الفاتحة الرابعة : أنّ مدرك وجوب نصبه عند أهل الحق شرعي لا عقلي وقرّروه من وجهين ـ أحدهما اعتباري ـ والثاني إجماعي	فصل في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب (الخلافة والامامة) وشروطه (ص 136) . . . أن نصب الامام واجب قد عرف وجوبه في الشرع باجماع الصحابة والتابعين . . . . وقد ذهب بعض النّاس الى أنّ مدرك وجوبه عقلي .	**الباب الثامن عشر ؛ في منزلة السلطان من القرآن** .

(1) نقتصر على الاشارة الى عناوين الفصول وبعض ما جاء فيها من جمل . . . ونعتقد ان عناوين الفصول تغني عن ايراد الصفحات نظرا لكثرة الطّبعات المتصلة بالمؤلفين الثاني والثالث .

المقدمة الثانية من بدائع السلك في طبائع الملك لابن الازرق (1)	مقدّمة ابن خلدون (1)	سراج الملوك للطرطوشي (1)
الفاتحة الخامسة : ان حقيقة هذا الوجوب الشرعي راجعة الى النيابة عن الشارع في حفظ الدّين وسياسة الدّنيا به ويسمّى باعتبار هذه النيابة خلافة وامامة .	فصل في معنى الخلافة والامامة . ... سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة وذلك أنّ الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط .	
الفاتحة السادسة : أنّ انقلاب الخلافة الى الملك .	فصل في انقلاب الخلافة الى الملك .	
الفاتحة السابعة : أنّ الكافي الآن من شروط الامامة بعد الذكورية والحريّة والبلوغ والعقل أربعة : النجدة والكفاية وسلامة الاعضاء والحواس والقدرة . تحليل ذلك في الفاتحة الثامنة إن تعذّر العلم والعدالة . - والتاسعة : إن تعذّرت - والعاشرة : ان فقد النسب القرشي	فصل في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب وشروطه . أمّا شروط المنصب فهي أربعة العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والاعضاء ممّا يؤثر في الرأيّ والعمل واختلاف في شرط خامس وهو النسب القرشي .	**الباب الحادي عشر** : في بيان معرفة الخصال التي هي قواعد السلطان ولا ثبات له دونها . **الباب الرابع عشر** : في الخصال المحمودة في السلطان .

(1) نقتصر على الاشارة الى عناوين الفصول وبعض ما جاء فيها من جمل . . . ونعتقد ان عناوين الفصول تغني عن ايراد الصفحات نظرا لكثرة الطّبعات المتصلة بالمؤلفين الثاني والثالث .

المقدمة الثانية من بدائع السلك في طبائع الملك لابن الازرق (1)	مقدّمة ابن خلدون (1)	سراج الملوك للطرطوشي (1)
الفاتحة الحادية عشرة : أنّ شروط وحدة الامام .	فصل في أنّ المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك . فصل في أنّ من طبيعة الملك الانفراد بالمجد .	**الباب السابع** : في بيان الحكمة في كون السلطان في الأرض (. . .) وكما لا يستقيم سلطانان في بلد واحد لا يستقيم الاهان للعالم .
الفتحة الثانية عشرة : أنّ الطاعة لى أصل عظيم من أصول الواجبات الدينيّة .	فصل في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب وشروطه ويجب على الخلق جميعا طاعته لقوله تعالى : أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم .	**الباب الخامس عشر** : فيما يعزّ به السلطان وهي الطاعة . . . طاعة الأمة فرض على الرعية .
الفاتحة الثالثة عشرة والرابعة عشرة : أن جوره لا يسقط وجوب الطاعة له .		**الباب الخامس** : . . . اذا جار كان عليه الاصر وعلى الرّعية الصّبر . **الباب الموفى أربعين** : فيما يجب على الرعّية اذا جار السلطان .

(1) نقتصر على الاشارة الى عناوين الفصول وبعض ما جاء فيها من جمل . . . ونعتقد ان عناوين الفصول تغني عن ايراد الصفحات نظرا لكثرة الطّبعات المتصلة بالمؤلفين الثانى والثالث .

المقدمة الثانية من بدائع السلك في طبائع الملك لابن الازرق (1)	مقدّمة ابن خلدون (1)	سراج الملوك للطرطوشي (1)
الفاتحة الخامسة عشرة : أنّ الصّبر عليه اذا جار من عزائم الدّين ووصايا الأئمة الناصحين .		**الباب الثاني والثلاثون** : في الصّبر . قال تعالى : « إنّما يوفّى الصّابرون أجرهم بغير حساب » ثمّ ندبهم الى الصّبر مع وجود الأذى .
الفاتحة السادسة عشرة : ان المناسبة بينه وبين الرّعية مطردة الوصول في كل زمان .		**الباب الحادي والأربعون** : في كما تكونوا يولّى عليكم .
الفتحة السابعة عشرة : أنّه مع رعيته مغبون غير غابن وخاسر غير رابح .		**الباب السادس** : في أنّ السلطان مع رعيته مغبون غير غابن وخاسر غير رابح .
الفاتحة الثامنة عشرة : أنّ للامامة من عظيم الخطر ما يجب أن يكون من الخائف منه على بال .		**البـاب الخامـس** . . .
الفاتحة التاسعة عشرة : أنّ لهاً مع ذلك شرف المنزلة وجزيل الأجر ما ينبغي أن يغتبط بها ما فازت بها قداحه .		**البـاب الخامـس** .
الفاتحة العشرون : أن صلاح السلطان وفساده صلاح الرعية وفسادها .		**الباب الثاني والاربعون** : في بيان الخصلة التي تصلح بها الرعيّة الباب الخامس في فضل الولاة والقضاة اذا عدلوا .

(1) نقتصر على الاشارة الى عناوين الفصول وبعض ما جاء فيها من جمل . . . ونعتقد ان عناوين الفصول تغني عن ايراد الصفحات نظرا لكثرة الطّبعات المتصلة بالمؤلفين الثاني والثالث .

ويمكننا أن نستنتج من خلال هذا التوزيع الثلاثي المقارن جملة من الملاحظات أهمّها :

1) تركزت مقدّمة ابن الازرق الثانية على المحاور التالية :

أ ـ وجوب نصب السلطان والأحكام المتصلة بذلك (من الفاتحة الأولى إلى الخامسة) .

ب ـ انقلاب الخلافة إلى الملك (الفاتحة السادسة) .

ج ـ شروط الامامة (من الفاتحة السابعة إلى الحادية عشرة) .

د ـ وجوب طاعة الامام والصبر عليه (من الفاتحة الثانية عشرة إلى الخامسة عشرة .

هـ ـ علاقة الرّاعي بالرّعيّة (الفاتحتان السادسة عشرة والسابعة عشرة) .

و ـ قيمة منصب الامامة وخطره ودوره في فساد الرعية أو صلاحها (من الفاتحة الثامنة عشرة إلى الفاتحة العشرين) .

والمتأمّل في هذه المحاور يتضح لديه أنّها تتعلّق بأصول شرعيّة استند فيها ابن الازرق أساسا إلى كتاب سراج الملوك للطرطوشي . ولكن المحور الثاني هو الفصل الخلدوني الذي لا نجد له أثرا في كتاب الطرطوشي وهو فصل يبدو مقحما إقحاما في مقدّمة ابن الازرق وذلك لأنه في الحقيقة لا يبحث في أحكام فقهيّة عامة كسائر المحاور وإنّما يمثل مرحلة أساسية في حركية التّاريخ وفي تبدّل العمران الذي أُسّس عليه تفكير ابن خلدون في مقدّمته . ويؤكد ما نذهب إليه دلالة الألفاظ التي تقوم عليها هذه المحاور ، فمجموعة الكلمات « وجوب » و « شروط » و « وجوب » و « علاقة » و « قيمة » ـ تتقابل مع عبارة « انقلاب » من الناحية الدلالية ، وتشعرنا لفظة انقلاب بمفهوم التّحوّل في العمران وبالنظرة التطوّريّة التي لم يفهمها ابن الازرق ولم ينتبه إليها سائر معاصريه في مقدّمة ابن خلدون .

2) يلخص ابن الازرق في هذه المقدمة كلام الطرطوشي او ابن خلدون دون ذكر اسميهما في غالب الأحيان ، وقد يتدخل في آخر الفاتحة فيعلّق على ما

أورده من كلام وذلك بعبارة قلت (1) اعتبار (2) أو إنصاف (3) ، غير أننا لا نجد تحت هذه العبارات إلا تأصيلا لما لخّصه من معان ، وعادة ما يكون ذلك بآيات قرآنية أو حديث شريف أو أقوال لبعض الفقهاء من أمثال :

- عز الدين بن عبد السلام (1) (660) هـ وهو فقيه أصولي بلغ رتبة الاجتهاد .

- القرافي (2) (684) هـ صاحب التنقيح في أصول الفقه ، وأنواع البروق في أنوار الفروق في أصول الفقه أيضا .

- ابن التلمساني (3) (644) هـ فقيه أصولي .

الآمدي (4) (631) هـ فقيه أصولي صاحب الإحكام في فصول الأحكام .

- والغزالي (5) (505) هـ والمقري (6) (759) هـ أبي بكر الباقلاني (7) (403) هـ والشاطبي (8) (790) هـ وأبي اسحاق بن فتوح (9) (867) هـ .

ويتبين بهذا أنّ مراجع ابن الازرق تعود إلى ميدان الفقه أساسا كما قلنا في القسم الأوّل من بحثنا ، وهو أمر يؤكد ما ذهبنا إليه من عمق أثر هذه الثقافة في تفكيره .

---

(1) بدائع السلك ص ص 73 . 77 . 85 . 92 . 93 . 94 . 95 . 96 . 97 .
(2) نفس المرجع ص 80 .
(3) نفس المرجع ص 77 .
(1) بدائع السلك ص 95 . 103 .
(2) نفس المرجع ص 94 .
(3) نفس المرجع ص 93 .
(4) نفس المرجع ص 95 .
(5) نفس المرجع ص 96 .
(6) نفس المرجع ص 96 .
(7) نفس المرجع ص 96 .
(8) نفس المرجع ص 97 .
(9) نفس المرجع ص 97 .

كما يتبينّ أيضا أنّ ابن الازرق قد اعتمد في مقدّمته الأولى اعتمادا كليّا على ابن خلدون بخلاف ما فعله في مقدّمته الثانية ؛ ولعل ذلك متأت من اعتبار المقدّمة قد حوت كل ما سبق ابن خلدون من « نظر عقلي » فلسفي ليس لابن الأزرق في خزانة معارفه منه الشيء الكثير.

3) ومن المراجع الأساسية لابن الأزرق في هذه المقدمة الثانية كتاب سراج الملوك لابي بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (520) هـ وهو كتاب يقول عنه صاحبه إنه خلاصة النّظر « في سير الأمم الماضية والملوك الخالية وما وضعوه من السياسات في تدبير الدّول والتزموه من القوانين في حفظ الدّول (...) فجمعت ما انطوى عليه سيرهم خاصة من الملوك الطوائف وحكماء الدّول ، فوجدت ذلك في ست من الأمم وهم العرب والفرس والرّوم والهند والسّند والسّند هند (...) فنظمت ما ألفيت في كتبهم من الحكمة البالغة والسّير المستحسنة والكلمة اللّطيفة (...) إلى ما رويته وجمعته من سير الأنبياء عليهم السلام وآثار الأولياء وبراعة العلماء وحكمة الحكماء ونوادر الخلفاء وما انطوى عليه القرآن العزيز الذي هو بحر العلوم وينبوع الحكم ومعدن السّياسات ... هو الهادي من الضّلالة والحاوي لمحاسن الدنيا وفضائل الآخرة » (10) . فسراج الملوك كتاب في علم السياسة المدنية ؛ وهو علم عرّفه ابن خلدون بأنه تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة . مضيفا أن مقدمته ليست من هذا العلم ذلك أن السياسة المدنية تتجه اتجاها معياريّا وتمزج السّياسة بالأخلاق والوعظ والإرشاد .

وبذلك يتبينّ أن ابن الازرق قد اعتمد كتابا في الأدب السياسي يحتوي على أربعة وستين بابا ، أولها في مواعظ الملوك وآخرها حكم منثورة . وهو قد اعتمد هذا الكتاب في ستّ عشرة فاتحة من جملة عشرين ، على أننا نجد تشابه

(10) مقدمة كتاب سراج الملوك للطرطوشي .

كبيرا بين ما يورده ابن خلدون وبين ما في سراج الملوك من معان ، وقد سبق لنا إن فسّرنا مثل هذه الظّاهرة (1) .

4) ماذا نقل عن ابن خلدون في المقدّمة الثانية ؟ لقد نقل ابن الأزرق عن ابن خلدون المنطلق أي الفاتحة ، ولا شكّ أنّه لاحظ نفس المعنى عند الطرطوشي في الباب الخامس من كتابه ، لكنه يلخّص فصل ابن خلدون أو قسما من الباب الأوّل في العمران البشري على الجملة ، وهو القسم المتعلق بضرورة الوازع بالنسبة إلى الاجتماع البشري وتميّز الانسان به من دون سائر الحيوانات . ولكن لماذا يفضل ابن الأزرق فصل المقدّمة لابن خلدون على باب سراج الملوك فيجعله مرجعا أساسيّا في فاتحته الأولى ؟ يبدو أنّ ذلك يرجع إلى أنّ ابن خلدون وظّف المعاني المتعلقة بالوازع وربطها بالملك الذي يكون من صفاته القهر والغلب . فابن خلدون يؤكد أن الانسان متميّز عن سائر الحيوانات بالحاجة إلى الحكم الوازع والسلطان القاهر . وبذلك يتضح أنّ ابن الأزرق قد تأثر تأثرا كبيرا بابن خلدون من جهة كونه يجد لديه ما يحتاج إليه في تأليف كتابه من مثل تعريف الملك حيث يقول ابن خلدون « يكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان وهذا هو معنى الملك » (2) .

وهكذا فقد كانت مقدمة ابن خلدون المنطلق في مقدمة ابن الازرق الثانية ، ولكنه سرعان ما يعود إلى تلخيص سراج الملوك . فابتداء من الفاتحة الثانية يبدأ الخوض في المسائل الفقهيّة والشرعية المتصلة بالملك والامامة ، وما يتعلق بنصب الإمام والخصال التي يشترط أن يتحلّى بها ، وقيمته ، معتمدا في ذلك كله على الطرطوشي . واذا ما تدخّل بعبارة « قلت » ، فانه يورد بعض أقوال الفقهاء ممن ذكرناهم أو حديثا شريفا أو آيات من القرآن الكريم كان

(1) لم نورد كل المعاني التي أخذها ابن خلدون عن الطرطوشي في سراج الملوك من مثل ما جاء في الباب السابع من تأكيد على الطبيعة الحيوانية في الانسان « مثل الحيتان في البحر يزدرد الكبير الصغير فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر . . . » وقد أكّد ابن خلدون بدوره على هذه المعاني في مقدمته وغيرها مما جاء به الطرطوشي من قبله . الا ان ذلك قد يدخل في دراسات لا يتسع لها هذا المقام .

(2) المقدمة ص 188 .

الطرطوشي قد أوردها أيضا ، وقد عاد ابن الأزرق في الفاتحة السادسة الى اعتماد ابن خلدون وذلك في انقلاب الخلافة الى المللِك وقد أشرنا الى أنّها فاتحة مقحمة إقحاما في المقدّمة الثانية ، ولكن قد يكون ابن الأزرق أراد أن يوضّح الفرق بين الخلافة والملك قبل أن يتوسّع في الحديث عن الملك في بقيّة كتابه .

كما نجد أثر المقدّمة في الفواتح السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة فقد اعتمد ابن الازرق الفصل الخلدوني : في اختلاف الأمة في حكم هذا المنصب (الامامة) وشروطه .

وقد استحسن في الفاتحة العاشرة موقفا لابن خلدون خالف به قول الجمهور ، ويتمثل في فقدان شرط النّسب القرشي في الامام ، وقد إستند ابن خلدون في ذلك الى « أنّ قصد الشارع في اشتراطه ليس لمجرّد التّبرّك به وان كان ذلك حاصلا بل لرفع التّنازع به كما كان لقريش من العصبيّة والغلب ، وقصد ذلك لا يختصّ بجيل ولا عصر فمتى وجدت العصبيّة في القائم بأمر المسلمين كانت هي العلّة المشتملة على المقصوذ من القرشيّة ، لا سيّما وقد تلاشت عصبيّتها مشرقا ومغربا ولا يلزم عموم ذلك في جميع الآفاق كما كان في القرشيّة لقوتها ـ حينئذ ـ على ذلك بل يختص الآن كل قطر بمن له فيه عصبيّة غالبة (. . .) والوجود شاهد بذلك فانّه لا يقوم بأمر أمّة أو جيل إلا من غلب عليهم ، وقلّ أن يكون الأمر الشرعيّ مخالفا للأمر الوجودي » (1) وقد علّق ابن الأزرق على هذا الكلام بقوله : « قلت : وهذا تقرير في غاية الحسن ونهاية البراعة والتّحقيق وقوله « وقلّ أن يكون الأمر الشرعيّ مخالفا للأمر الوجودي » بل لا يكون كذلك البتّة » (2) .

فابن الأزرق معجب أشد الاعجاب بمقالة ابن خلدون التي خالف بها قول الجمهور اعتمادا على ما توصّل إليه من تحليلات معمّقة لحركة الاجتماع البشري وبناء الدّول ، وهو ما يدلّ على تأثّر ابن الأزرق بابن خلدون وآرائه في الملك وما يتعلق به من نظر عقلي وشرعي .

(1) بدائع السلك ص 97 .
(2) نفس المرجع .

وقد كان له الفضل في إبراز الكثير من الأفكار الخلدونيّة وتأكيدها وربطها بالواقع الذي يعيش فيه كقوله « وهذا حكم زماننا » . . .

ولكن هل يدل ذلك على استيعاب ابن الأزرق للمنهج الخلدوني الذي أفرز علما جديدا مستقلاّ بنفسه ؟

ولعله من المفيد ـ لاستكمال المقارنة ـ ان نرسم الخطوط الكبرى لمنهج ابن خلدون في مقدّمته .

لقد انطلق ابن خلدون من مغالط المؤرّخين والبحث عن منهجيّة تاريخيّة يمكن بواسطتها « تمييز الحقّ من الباطل » (2) . وقد حمله ذلك إلى محاولة تحكيم « أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران » (3) أو ما يسميه أيضا « طبائع الموجودات » (4) و « طبائع الأحوال في العمران » (5) وقد اعتبر أن « هذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض » (6) وبذلك تأكّد لديه وجوب الكشف عن هذه الطبائع التي توجّه كل شيء في المجتمعات الانسانيّة . وذلك لا يتمّ إلا « بقيس الغائب بالشاهد » والاطّلاع على « اختلاف الأمم والبقاع والأعصار في السّير والأخلاق والعوائد والنّحل والمذاهب وسائر الأحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتّفق منها والمختلف . . . » (7) .

وبذلك يكون ابن خلدون قد عمد إلى الكشف عن القوانين الاجتماعية لكي يجعل ـ « بوجه برهاني لا مدخل للشكّ فيه » ـ « معيارا صحيحا يتحرّى

(1) المقدمة ص 37 .
(2) المقدمة ص 37 .
(3) المقدمة ص 28 .
(4) المقدمة ص 35 .
(5) المقدمة ص ص 37 .
(6) المقدمة ص 28 .
(7) المقدمة ص 38 .

به المؤرخون طريق الصّدق والصواب فيما ينقلونه » (8) ، وهو الغرض الأوّلي للمقدّمة . وقد أشار منذ مقدّمة الكتاب الأوّل لمقدمته إلى أنه توصّل إلى علم جديد مغاير لعلم الخطابة والسياسة المدنيّة (9) . ثمّ عرّف العمران بأنه « التساكن والتنازل في مصر أو حلّة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش » (10) وهي ميزة تميّز بها البشر . ثم بيّن أن العمران ينقسم إلى بدوي وحضري ، وهما من الأحوال التي تعرض فيها أمور من حيث الاجتماع عروضا ذاتيا له .

وقد ذكر ابن خلدون إثر هذا التقديم فصول المقدّمة الستّة ، وما يعنينا في هذا المقام هو تعليله للترتيب الذي ارتآه لفصول مقدّمته ، يقول « وقد قدّمت العمران البدوي لأنه سابق على جميعها وكذا تقديم الملك على البلدان والأمصار ، وأمّا تقديم المعاش فلأنّ المعاش ضروريّ طبيعيّ وتعلّم العلم كمالي أو حاجيّ والطبيعيّ أقدم من الكمالي ، وجعلت الصنائع مع الكسب لأنّها منه ببعض الوجوه ومن حيث العمران » (11) .

فمنهجه في البحث وضّحه بهذه التمهيدات الطويلة التي شرح خلالها كيفيّة اكتشافه لعلم العمران ، مبيّنا قيمته وأحوال الاجتماع البشري وعوارضه ومعرّفا بعض مصطلحاته من مثل العمران ومشيرا إلى بعض العناصر المتفاعلة مع وجوده أو المحركة لتطوّره من مثل الحكم الوازع والعصبيّة . . . وقد زاد تخطيطُه للمقدّمة تلك المنهجيّة وضوحا وتجسيما ، اذ انبنى على أساس حركية العمران البشري والاجتماع الانساني ـ فجاءت كل مرحلة مفضية إلى ما بعدها : إنّ البدوي تُولد فيه العصبيّة وتَقْوَى فتفضي إلى التّغلب الذي به ينشأ الملكُ ، وفي ظل الملك ينشأُ العمرانُ الحضري الذي ينشأ فيه الرفه وتتكاثر الأموال التي تنفق على الصنائع فيُطْلَبُ الكمالي . . . فالملك جسر بين

(8) المقدمة ص 38 . 39 . 40 .
(9) المقدمة ص 41 .
(10) المقدمة ص 41 .
(11) المقدمة ص 41 .

الاجتماع البدوي والعمران الحضري ، والعصبية قوّة محركة تنتهي في المرحلة الأولى إلى الملك لتعبر به الضّفة ولتبدأ في التّلاشي والضعف في الاجتماع الحضري .

فابن خلودن كان بحثه تعليليا برهانيا ومستوفى ، فهو يصدر عن وعي ونظرة شاملة ومتعمّقة جعلت أفكاره في المقدّمة متسلسلة ومترابطة .

على أنّ السّياق الذي أورد فيه ابن الأزرق الأفكار الخلدونية سياق مختلف عن منهج ابن خلدون الذي لم يتحدّث عن الملك إلّا باعتباره صورة تتشكل فيها حركيّة العمران البشري . في حين جعل ابن الأزرق غايته في كتابه ، الكلام عن الملك والسلطان الذي له منزلة عظيمة ودور كبير في الصّلاح في الدّنيا والآخرة (1) وقد سعى إلى التمهيد للملك بما يتصل به من نظر عقلي وأصول شرعيّة نقليّة وقد تجسّم ذلك في مقدّمتيه .

فمقدّمتا ابن الأزرق تمهّدان للغرض الأساسي وهو الحديث عن الملك والسلطان . ومن أجل هذا انتقى من المقدّمة ـ لمقدمته الأولى ـ الفصول الخاصّة بالعمران البدوي وأحواله العامّة باعتباره منطلقا للاجتماع البشري الذي يحتاج إلى الوازع ، وباعتباره ميدانا وأرضية لظهور العصبيّة ونزعتها إلى التغلّب . غير أنّ ابن الأزرق حذف الفصول التي تفصح عن منهج ابن خلدون المتمثل في حركية العمران البدوي كالفصل السابع عشر : « في أن الغاية التي تجري إليها العصبيّة هي الملك » وكذلك الفصول المتعلقة بالعوائق التي تحول دون الوصول إلى الملك . ولعل هذا ما جعل أفكار ابن خلدون تنتقل في كتاب ابن الأزرق إلى سياق مغاير للسياق الذي وردت فيه في المقدّمة .

ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنّ ابن الأزرق قد قرأ المقدّمة بفكر ما قبل ابن خلدون ، أي بمنظور يمزج السّياسة بالأخلاق ، ولا غرو في ذلك إذ أن القرن التّاسع هو قرن التراجع والانحطاط الذي أخذ ينشر ظلاله في كل مكان

(1) بدائع السلك I . 59 .

في العالم الاسلامي ، فلم يتوفر لابن الأزرق - كما لم يتوفر لغيره من معاصريه أو ممّن جاء بعده - نظر يحيط بشموليه الأفكار الخلدونية وعمقها . ولذلك عاد ابن الأزرق في مقدّمته الثانية إلى الاعتماد على الطرطوشي وكتابه سراج الملوك لينقل عنه جلّ فواتحه ، فيصطبغ كلامه بالفقه ، ويتلّون مؤلفه بما في مصنّفات الأدب السياسي من تقرير الواقع بالوعظ والإرشاد .

على أن هذا لا يمنع من ملاحظة عمق تأثير المقدّمة في ابن الأزرق ، وذلك في مستوى اللّغة والأسلوب ، كاعتماد الحجج والبراهين ، كما استطاع ابن الأزرق أن يبرز الكثير من الأفكار الخلدونيّة بتأكيدها وتقسيمها وتفريعها ومحاولة مقارنتها بالواقع . ولعله كان للمقدّمة أثر في مستوى التفكير أيضا ، فابن الأزرق ينطلق من أن الملك هو صورة للعمران البشري والاجتماع الانساني (1) وذلك دليل على انتفاعه بما اعتمده من منطلقات خلدونيّة ؛ ولكنه لم يتجاوز ذلك لفهم النظريّة الخلدونّية التي أسست علم العمران البشري والاجتماع الانساني .

خالد ميلاد
كلية الآداب والعلوم الانسانية بالقيروان

(1) يقول في الخطبة « أمّا بعد فإنّ من أشهر ما عُلم عقلا وسمعا . . . أنّ الملك صورة العمران البشري وقراره . . . » بدائع السلك I ص 58 .